
Double values in Western society Between the Corona pandemic and the Russia-Ukraine war

Dr. Houria Benkaddour¹

¹Mohamed Khider University of Biskra, Research Unit: Human Sciences for Philosophical Studies, Social and Humanitarian Studies, University of Oran 2 Mohamed Ben Ahmed (Algeria).

The E-mail Author: houria.benkadour@univ-biskra.dz

Received: 09/2023

Published: 04/2024

Abstract:

The end of 2019 came different from all other years, as humanity knew the spread of the Corona virus, which changed our view of the world, changed its features as well, and struck its false morals. Western civilization, in its first real test, collapsed its values that it advocated, as it took care of its true citizens only, and rejected others in a clear racist precedent that fueled all the slogans of equality and justice. This invisible virus alone was not enough to expose the values of Western society, but rather the Russian-Ukrainian war (2022) came to put in our hands the reality of these societies, their organizations and bodies, and the falsity of their values and principles, through their duplicity in dealing with the event.

This research paper came to clarify, or rather reveal to us, the double values of Western society, as soon as crises emerge, whether they are environmental health (Corona virus), or humanitarian (the Russian-Ukrainian war). What is the fate of avoiding the falsehood of these values, and trying to get out of the circle of fear of repercussions and influences?

Keywords: Values, Corona virus, the Ukrainian war, truth and illusion, the ego and the other, others.

ازدواجية القيم لدى المجتمع الغربي بين جائحة كورونا وحرب روسيا - أوكرانيا

د. بن قدور حورية¹

¹جامعة محمد خيضر بسكرة، وحدة البحث: علوم الإنسان للدراسات الفلسفية، الاجتماعية والإنسانية، جامعة وهران 2 محمد بن أحمد (الجزائر).

الملخص:

جاءت نهاية سنة 2019 مختلفة عن كل السنوات، حيث عرفت فيها البشرية انتشار فيروس كورونا الذي غيّر نظرتنا للعالم، وغير معالمه أيضا، وضرب أخلاقه الزائفة. فالحضارة الغربية في أول اختبار حقيقي لها، انهارت قيمها التي نادت بها، حيث أصبحت تعتني بمواطنيها الحقيقيين فقط، وترفض الغير في سابقة عنصرية واضحة أسقت كل شعارات المساواة والعدالة. لم يكن هذا الفيروس الغير المرئي وحده كفيلا بفضح قيم المجتمع الغربي بل جاءت الحرب الروسية الأوكرانية (2022) لتضع بين أيدينا حقيقة هذه المجتمعات ومنظمتها وهيئاتها وزيف قيمها ومبادئها، من خلال ازدواجيتها في التعاطي مع الحدث.

جاءت هذه الورقة البحثية لتوضح أو بالأحرى تكشف لنا عن ازدواجية القيم لدى المجتمع الغربي، بمجرد ظهور أزمات، سواء كانت بيئية صحية (كورونا فيروس)، أو إنسانية (الحرب الروسية الأوكرانية). وكيف المأل لتجنب زيف هذه القيم، ومحاولة الخروج من دائرة الخوف من الانعكاسات والتأثيرات.

الكلمات المفتاحية: القيم، كورونا فيروس، الحرب الروسية الأوكرانية، الحقيقة والوهم، الأنا والآخر، الغير.

مقدمة

لم تمض سوى ثلاث سنوات أو أكثر على ظهور فيروس كورونا الذي غيّر معالم العالم من جهة وغير نظرتنا له من جهة أخرى. وضرب أخلاقه الزائفة التي لطالما رفعتها شعاراتهم. فالحضارة الغربية وفي أول اختبار حقيقي لها، انهارت قيمها التي نادت بها ولطالما احتقرتنا كشعوب ثالثة ومتخلفة لعدم كفاءتنا كشعوب متحضرة تمتلك وتحيا بتلك القيم. فبمجرد انتشار هذا الفيروس، وارتفعت أعداد الإصابات والوفيات وتوسع رقعة انتشاره وعدم التحكم فيه، بادرت هذه الدول إلى حلول أكثر ما توصف به أنها حلول عنصرية، حيث أصبحت تعتني بمواطنيها الحقيقيين فقط (مواطن الدولة ذو الأصول الغربية). وترفض الآخر/ الغير في سابقة دقت ناقوس انهيار قيم الغرب.

وفي برهة من الزمن وأثناء محاولة العالم بكل أفراد وجماعاته ومؤسساته التعافي من آثار هذه الجائحة، ومحاولة تدارك النقائص من خلال تطوير البنى التحتية للمستشفيات والمخابر، ووضع الخطط الاستراتيجية لتفادي ومحاولة التصدي لهكذا كوارث مستقبلا، ناهيك عن عدم الوصول إلى حقيقة هذا الفيروس ومن وراءه، وان كان هناك متسبب في سرعة انتشاره؟. ارتفعت أصوات الحرب بين روسيا (كقوة عالمية تضاهي القوة الأمريكية) وأوكرانيا (الدولة التي وعدا الغرب بالانضمام لحلف الناتو)، لتنفجر بعدها وسائل الإعلام

الغربية، التي كانت تقف موقف المتفرج لكل ما يحدث في بلادنا العربية والإسلامية ، بل وكانت توجع الوضع وتغير الصورة وتمحو الحقيقة وتدافع عن المعتدي ومرات تتجاوز ذلك وتقدم له الدعم المعنوي (مجلس الأمن...)، والمادي (السلاح والمال) بكل طاقاتها وإمكاناتها لتتدد بالحرب وتصفها بالحرب اللاأخلاقية، وتدعو لتجريم المعتدي في نظرها (روسيا) وقطع العلاقات معه. هذه هي قيم الغرب (الأنا) مع الآخر الذي تعتبره غيرها، لا يساوي ذاتها، هذه هي المعاملة التي تحاول الحكومات والمؤسسات وحتى المثقفين الغربيين نشرها ودعوة العالم إلى تبنيها.

إن فاجعة (جائحة) كورونا التي مست العالم وأوصدت كل شيء. أعادت بنا الذاكرة لما طرحه إدغار موران هل نسير إلى الهاوية؟ عندما قال: "وهذا الكتاب يسعى إلى وصف سيرورة العولمة التي تعتبر أسوأ شيء. إذ باتت تحط من شأن التسابق "صوب الهاوية" (إ. موران: 2012، 05). إننا نجيب موران أننا لم نعد نقف عند سيرورة العولمة فقط. وإنما أصبحنا نقف على مشارف الهاوية، مع الحرب البيولوجية الجديدة المتمثلة في فيروس كورونا (في البداية ظهر فيروسا يسمى "كورونا" في الصين، لكنه أصبح يسمى "كوفيد 19" في أوربا، ليصبح اسمه عند الرئيس الأمريكي السابق دونالد ترامب عدو الصين الأول اقتصاديا "الفيروس الصيني"). حتى وإن لم يكن مصنع مخبريا. أصبح ورقة ضغط من طرف الدول العظمى، في مجال المعدات الطبية والمخبرية والأدوية (ولعل شركات الأدوية أكثر دموية وانتهازية من الشركات البترولية المتعددة الجنسيات، نظرا لأن هذا الفيروس لا يهدد الاقتصادات وإنما يهدد الأرواح). والاقتصاد والمال وبيع القرار السياسي. وبالتالي أصبح مسموحا وجديرا بنا التساؤل: هل العالم اليوم يسير بخطى ثابتة نحو الهاوية (الإنسانية) والانهيال (اللاقيم)؟.

مشكلة البحث: إن صرح سؤال الغربية الذي نادى به الفكر الغربي انهار تمامًا. حيث لم يصبح الغير هو الأنا. وأصبح الآخر هو الهامش الذي لا يساوي الذات. لقد انهارت معه قيم ليفيناس ومسؤولية جوناس، وعلى هذا نتساءل: هل هو فكر وحبر على الورق. أم أنها قيم تخضع للطوارئ؟ وبالتالي هل استطاعت كورونا كفيروس غير مرئي بالعين المجردة كشف هذا العالم، وهل بينت الحرب الأوكرانية زيف القيم الغربية، التي نادى بها فلاسفة وأنظمة الغرب؟.

هدف البحث: نهدف من خلال هذه الورقة البحثية تبين ازدواجية القيم لدى الغرب، بمجرد ظهور أزمات، سواء كانت بيئية صحية (كورونا فيروس) أو إنسانية (الحرب الروسية الأوكرانية). وكيف المآل لتجنب زيف هذه القيم، ومحاولة الخروج من دائرة الخوف من الانعكاسات والتأثيرات.

منهج البحث: نعتمد في بحثنا هذا استقراء الأحداث وتحليل تفاصيلها، من خلال إتباع المنهج الوصفي والتحليلي بغية الوقوف على تجليات القيم الغربية المزيفة.

خطة البحث: بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة وقائمة المراجع، جاءت خطة تقسيم البحث على النحو التالي:

- ✓ كورونا وانهايار القيم (أم هي انتصار لهيدغر وسارتر ونيتشه على حساب ليفيناس وهابرماس).
- ✓ كورونا، فيروس الشر بوجه الخير.
- ✓ الحرب الروسية الأوكرانية وتداعياتها على القيم الإنسانية.
- ✓ بعد الحروب: العالمية والنووية والتكنولوجية، هل نحن بصدد حروب فيروسية؟
- ✓ كل زيف زائل فلا شيء يعلو العلم.

1. كورونا وانهايار القيم (أم هي انتصار لهيدغر وسارتر ونيتشه على حساب ليفيناس وهابرماس):

إن فيروس كورونا غيّر نظرتنا للعالم. وغير معالمه. وضرب أخلاقه الزائفة. فالحضارة الغربية في أول اختبار حقيقي لها، انهارت قيمها التي نادت بها. حيث أصبحت تعتني بمواطنيها الحقيقيين فقط وترفض الغير في سابقة عنصرية واضحة أسقت كل شعارات المساواة والعدالة.

إن صرح سؤال الغربية الذي نادى به الفكر الغربي انهار تمامًا. حيث لم يصبح الغير هو الأنا. وأصبح الآخر هو الهامش الذي لا يساوي الذات. كما انهارت معه قيم ليفيناس ومسؤولية جوناس.

إن جائحة الكورونا أو ما يسمى بالكوفيد 19 لم تتوقف عند هذا الحد فقط، بل قد تُغيّر التفكير الفلسفي المعاصر برمته، فهذا الأخير دعا إلى التواصل والعيش المشترك والغيرية. في حين أن الكورونا دعت إلى العزلة (الحجر الصحي، أو الاغلاق التام الذي عرفته أغلب دول العالم أثناء الموجة الأولى خاصة نهاية مارس 2020). فهل هذا الفيروس يجعل الفلسفة تعيد خطواتها في التفكير في العزلة والتواصل؟ وهل انتصر هيدغر على ليفيناس وجوناس وهابرماس... إلخ؟ ذلك عندما أحب هيدغر العزلة/ الوحدة (هيدغر يحب تسميتها بالوحدة بدل العزلة) في الأرياف بدل صخب المدينة الزائفة عندما قال: "غالبًا ما يندهش أهل المدينة من انعزالي الطويل الرتيب في الجبال مع الفلاحين إلا أن هذا ليس انعزالًا، وإنما هي الوحدة. ففي المدن الكبيرة يستطيع المرء بسهولة أن يكون منعزلًا أكثر من أي مكان آخر، لكنه لا يستطيع أبدًا أن يكون فيها وحيدًا. ذلك أن للوحدة القدرة الأصلية على عدم عزلنا، بل إنها على العكس من ذلك ترمي وجودنا بأكمله في الحوار الواسع مع جوهر الأشياء كلها" (بنعبد العالي: 2001، 10). إن فيروس كورونا يصدق هيدغر حيث أصبحت الوحدة والأرياف المأمن من هذا الشر الوافد (من المنظور اللاعلمي). وكأن الفيروس ينتصر لفلسفة هيدغر على حساب الفلسفات الأخرى.

فيروس كورونا سيغير نظرة الفلسفة والفلاسفة لبعض القضايا. حيث انتقد الكثير وسائل التواصل الاجتماعي، وقال أنها أحلت التواصل الزائف بدل التواصل الحقيقي بين الذات. لأن التواصل وجهًا للوجه يحمل كل

الصفات الإنسانية وهذا مطابقة لطرح ليفيناس الذي يرى أن إنسانية الإنسان تكمن في الوجه. (Face à face). بدل التواصل عن بعد باستخدام الهواتف الذكية والشاشات وغيرها من وسائل التواصل الاجتماعي التي تتيح خاصية التواصل عن بعد. لكن مع كورونا تغير هذا الطرح وأصبح التواصل وجهًا لوجه يحمل الموت والخطر أو الفناء. فأصبح التواصل وراء الشاشات أو عن بعد (الاعتماد على التقنية) الحل الأمثل لضمان الحفاظ على حياة الإنسان. إذن كورونا غيرت ما كان سائدا في التفكير الفلسفي. لم تتوقف كورونا عند هذا الحد فقط. بل هدمت القيم كما فعل نيتشه من قبل. فالغيرية كخطاب فلسفي إتيقي، هو الآخر لم يسلم من معول (فأس) الهدم. حيث اتجه الإنسان إلى الحفاظ على ذاته من خلال التزامه البيت، ورسم سياج لها بحيث أخرج الغير من دائرته وذلك عن طريق رفض استقبال أو مشاركة الآخر. إذ أن الآخر أصبح هو الجحيم بتعبير سارتر. وكأن الكورونا هنا تنتصر أيضًا لسائر على حساب ليفيناس. لأن الآخر المصاب أو المشكوك فيه. أو يحتمل أنه يحمل المرض أصبح هو الموت/ الجحيم، الذي يجب على الذات أن تتجنبه وتتجاوزته. وكأن صرح الأخلاق هدمته كورونا بمطرقة الهدم كما فعل نيتشه. إن كورونا هنا تدعو إلى إعادة بناء صرح الأخلاق من جديد.

2. كورونا، فيروس الشر بوجه الخير

رغم أن الكورونا هي وافد الشر بالنسبة للقيم الإنسانية. لكنها في الوقت ذاته بينت زيف الإنسان المعاصر في تبنيه للقيم ورفع شعاراتها، ومن خلال تصنيفه للمجتمعات والدول على أساسها. لقد ضربت كورونا مفهوم الفضاء العمومي الذي نادى به هابرماس، ومن قبله كانط. لم يعد الالتقاء مع الغير في إطار العلاقات الاجتماعية، الاقتصادية والخدمية، أو في إطار اللقاءات الرياضية والمنافسات الدولية، وحتى اللقاءات العلمية التعليمية والفكرية لتبادل الآراء والمحااجة، شيء مقبولا أو عقلانيا بل أصبح عكس ذلك إذ أن حفظ النفس أولى. وأحلت مكان الفضاء العمومي فضاء البيت/ المنزل. فهل يجب علينا أن ننقل من الفضاء العام إلى الفضاء الخاص (باعتبار أن المنزل فضاء خاص)؟ وهل يجب أن نفكر في آلية جديدة بعد فشل آليات التفكير القديمة؟ هل بات علينا أن نؤمن بحدثة جديدة. علمًا أن الحدثة هي تجاوز القديم نحو الجديد؟ إنها أسئلة لن تجيب عنها إلا الأيام القادمة. فحتى الحديث على ما بعد كورونا في وقتنا، زيف لغوي. إذ العالم لم يفهم حتى الكورونا كفيروس يحمل مكونات مجهولة، فكيف نتكلم عن "الما بعد".

وتجلى وجه الخير فيها أنها أظهرت خرافة التفوق الغربي في كل شيء، فلم تعد الحضارة الغربية حضارة في معزل عن التاريخ الإنساني، والأسطورة التي لا تهزم، والعالم الآخر يعيش على قوة هذه الحضارة. لقد بينت هشاشة الدول الغربية في البنية التحتية من خلال فشل المنظومات الصحية (إيطاليا مثلا) وتدني الصحة والرعاية وميادين أخرى، كما أنها أظهرت أن هذه الأسطورة يمكن لها أن تنهار في أي وقت مثلها مثل باقي

الحضارات الإنسانية السابقة، وبالتالي تنهار معه تصورات هيجل بنهاية الحضارة بتفوق الجerman. كما تهاوى فكر فوكوياما بتصور نهاية التاريخ مع الليبرالية الغربية، على العالم أن يتطور أكثر وينزل من خرافة الوصول إلى حل كل شيء. وأنه الإنسان الذي يعرف كل شيء، وما حضارته وتطوره وخرافته بأنه الحضارة التي لا تزول، قد انهارت مع فيروس كورونا.

لقد جعل فيروس كورونا من الإنسان يعيد حساباته من الاستهلاك في كل الميادين، وخاصة في الغذاء واستغلال البيئة، والسعي الدؤوب نحو السيطرة عليها. لقد بين علماء الفلك وفق الأرصاد الأخيرة أن ثقب الأوزون على وشك الانغلاق، لقد ارتاح الكوكب من عناء التدمير المنظم من طرف الإنسان. لقد عادت الأرض والطبيعة تسترجعان صحتهما بعد عطلة الإنسان وحجره جراء الكورونا، فهل جعل هذا الفيروس من هذا الإنسان الذي عايش فترة الأزمة يعيد خطواته إتجاه البيئة ومستقبله على ظهر هذا الكوكب؟.

لقد جعل هذا الفيروس من الكون يستعيد عافيته من جديد، ومن ثمة عافية الإنسان مستقبلاً. إنه لجدير أن نعود إلى سؤال أرق الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس في كتابه "مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية" بقوله: "ماذا يفعل الإنسان بالزمن الذي قدر له أن يعيشه؟ هذا هو السؤال الذي لا أكاد أعيه، إنه سؤال يثيرني فقط". (هابرماس، 2006: 07). لقد جعلت كورونا من هذا السؤال يحتل الصدارة من جديد. ماذا نفعل إذا قدر وتجاوز الإنسان هذا الفيروس، هل نغير من سلوكنا اتجاه البيئة واتجاه أنفسنا؟ بالنسبة إلي إنه لسؤال مشروع جداً ماذا يمكن أن نفعل؟.

3. الحرب الروسية الأوكرانية وتداعياتها على القيم الإنسانية :

قبل الحديث مباشرة في الحرب الروسية الأوكرانية وتداعياتها، نطرح التساؤل التالي: هل الحرب أو الحروب من طبيعة الإنسان؟ وما مسبباتها؟

يرى أفلاطون في الأهواء الإنسانية سببا أساسيا للعنف السياسي، وقد ظلت هذه الفكرة متوارثة لدى الفلاسفة وعلماء الاجتماع من عهد القديس أوغسطينوس إلى ميكافيلي ثم سيغموند فرويد ، والتي تقول أن الطبيعة الإنسانية هي التي تخلق الصراع وهي من تسبب العنف وتخلق الفوضى في المجتمع. وهذا ما عبر عنه توماس هوبز عندما قال: "الإنسان ذئب لأخيه الإنسان، فهو يعتبر ذلك حرب الواحد ضد الآخر. إن سلم المجتمعات الداخلي برأيه هو عمل الدولة وهذا منوط بالبوليس وبالقانون وبالمؤسسات السياسية. ومع ذلك فإن الدول تخضع للدفاعات الغريزية عينها التي يخضع لها الأفراد. تشكل العلاقات الدولية ، بحسب رؤية هوبز، نوعا من الدولة الطبيعية، حيث تسود الحيلة والعنف وتوازن القوى . فيما يأتي جون جاك روسو ليعارض الرؤية التي وضعها هوبز حول الطبيعة الإنسانية، ويعتبر روسو الإنسان مسالما إذا ما كان في حالته الطبيعية، والحرب سببها المؤسسات الاجتماعية. (جان فرانسوا دورتييه، 2011، 339).

في صبيحة يوم الخميس 24 من شهر فبراير من سنة 2022 تفاجأ العالم وهو يشاهد المحطات التلفزيونية وشبكات التواصل الاجتماعي، وهي تنقل على المباشر الهجوم الروسي على أوكرانيا، حيث قررت روسيا إعطاء الأمر للقوات الروسية بشن الحرب، معلنة بذلك إنهاء الجهود الدبلوماسية، واستبدال الصراع السلمي بالحرب.

وقد كان الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، أمر بإرسال ما يصل إلى 200 ألف جندي إلى أوكرانيا، وهذا يعتبر أكبر غزو أوروبي منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية.

تعد روسيا قوة عظمى ناشئة على أنقاض الاتحاد السوفيتي من عدة نواحي، جغرافيا تعتبر روسيا أكبر دولة في العالم من حيث المساحة (تمتد روسيا عبر كامل شمال آسيا و40 بالمائة من أوروبا)، أما اقتصاديا فهي الآن من ضمن عشر أقوى اقتصاديات العالم، وأما عسكريا تصنف روسيا كثاني أقوى جيش في العالم بعد الولايات المتحدة الأمريكية. وتنتج وتصنع مختلف الأسلحة والأنظمة الدفاعية والاستخباراتية. كما أنها تمتلك سوقا كبيرا لتصدير منتجاتها المتنوعة رغم العقوبات، ناهيك عن مجموعة دول تعتبرهم روسيا حلفاء لها. فيما تعد أوكرانيا دولة منفصلة عن الاتحاد السوفيتي في 24 أغسطس 1991 ، تقع شرق أوروبا وتحدها روسيا من الشرق، جعلها هذا الموقع فضاء للصراع الروسي والأوروبي الأمريكي .

كان التعاطي الإعلامي العالمي مع الحرب الروسية الأوكرانية متذبذبا، فالغرب بكل ما يمثله الثقل الأوروبي والأمريكي كان منذ بداية الأزمة في صف أوكرانيا وعارض الهجمة ونعنها بالهجمية، وندد بالسلوك الروسي ضد أوكرانيا، كما حاول التعاطي مع هذه الحرب وكأنها بين محور الشر ومحور الخير من خلال إطلاق حملات التضامن مع أوكرانيا. بعد ذلك شهدنا الغرب وهو يمد أوكرانيا بالإمدادات العسكرية والمادية والدعم المعنوي واللوجستي من أجل تعجيز روسيا في حربها هذه. دون أدنى مراعاة للشروط الإنسانية أو الأخلاقية في الحروب.

وفي مجلس الأمن أيدت أكثر من 141 دولة قرار إدانة روسيا في حربها على أوكرانيا، التصويت كان بأغلبية ساحقة لصالح أوكرانيا تتقدمهم وم.أ و وكندا وكذلك الدول الأوروبية، فيما امتنعت 32 دولة من تبين موقفها في هذه الحرب على غرار الصين والهند وإيران وجنوب إفريقيا، كما أبدت سبع دول المتحالفة مع روسيا دعمها الكامل لهذه الحرب وعلى رأسها روسيا، سوريا، فنزويلا، وكوريا الشمالية، مالي، نيكاراغوا وأريتريا. وعقب هذا التصويت شهدت العديد من الدول الأوروبية احتجاجات، فيما علت كلمة بايدن: "بأن أمريكا ستدافع عن كل شبر من الناتو". كما عبر وزير خارجية أوكرانيا أن هذا التصويت يستدعي وقف الحرب واستعادة أوكرانيا لكل أراضيها.

كانت هذه الحرب بمثابة اللعنة التي لحقت بالغرب الذي طالما دافع عن القضايا الغير عادلة اتجاه العديد من الشعوب، والذي مارس العنف ولا زال ضد الكثير من دولنا العربية على غرار: العراق، فلسطين، سوريا، اليمن، ليبيا وحتى الإسلامية منها: أفغانستان، بحجة محاربة الإرهاب أو بحجة حماية الممتلكات وبعده حجج لا أساس لها من الصحة. وحملات التطهير العرقي التي مورست ضد مسلمي الروهينغا، التي لم نسمع ولا تنديد من طرف الغرب أو إعلامه، الذي يسوق عبر كل وسائله الإعلامية، ما تمليه عليه أنظمتها من تشويه في حقنا وتلميع صور أعدائنا ومرتكبي الجرائم ومنتهكي حقوق الإنسان والقيم الإنسانية، رغم أنها كانت ولا زالت من الذين يدعون الإنسانية ويرفعون شعارات العدالة والأخوة والديمقراطية وحق الشعوب في تقرير مصيرها.

4. بعد الحروب: العالمية والنووية والتكنولوجية، هل نحن بصدد حروب فيروسية؟ وما مآل القيم الإنسانية فيها؟

مثل هذا العنوان طرح السؤال التالي: "هل نحن بصدد حروب فيروسية؟" لن تجيب عنه إلى البيروتيقا حيث أن التطور العلمي المعاصر اتجه صوب الطب والاهتمام بجسم الإنسان كمادة يمكن التجريب عليها، ومعاملتها معاملة الجماد. حيث قال بونكاري: "الحياة هي الموت". وداخل هذا التجريب ومن أجل تخليص الإنسان من بعض الأمراض الوراثية، تدخل العلم في تركيبة الإنسان الخاصة بالجانب الوراثي أو ما يعرف بالـ ADN وحاول تعديله لتجاوز المرض ومعالجته.

لكن هذا الأمر لم يلبث أن تحول إلى جانبه المظلم والسلب، وتدخل الفاعل السياسي وحاول توجيه العلم لزاويته. والاستفادة من هذه الأبحاث، وجعلها ورقة ضغط على الدول من أجل بيع القرار السياسي، وظهر مع القرن الواحد والعشرين ما يعرف بالحرب البيولوجية. وهي أخطر بكثير من الحروب الأخرى التي عرفها الإنسان. إذ إن هذه الحروب لا تتوقف وتصيب الإنسان مباشرة "عدو مباشر للإنسانية"، وليست عدو يتوقف القتل معه بتوقف القصف، بل هي حرب داخل جسم الإنسان تدمره من الداخل، وتقضي على جنسه. "الثورة البيولوجية متسلحة بالمعرفة والتكنولوجيا الإحيائية، تهدف في الواقع إلى أن تصنع مجتمعا جديدا... فأنا ما لم نفهمها، فإننا حريون بأن ندمر أنفسنا في محاولتنا التكيف مع الغد... وعندما تصل التغيرات القادمة إلى أعماق حياتنا وكياننا، وبنائنا ووراثتنا، فإنها سوف تحطم العلاقات التقليدية، وسوف تعصف بقيمتنا" (سعيد محمد الحفار: 1984؛ 18).

إن الثورة البيولوجية وفق هذا الطرح ستغير معالم الإنسان، وتغير أخلاقه، وبالتالي تهدم العلاقات الأسرية والمجتمعية. وقد تهدم حتى العلاقات الإنسانية بين الأنا والغير. وتطغى الأنانية، فكل ينظر إلى مصلحته، لأن

الإنسان هنا معدل وراثيا لا تربطه علاقة مع أي إنسان، فالمستهدف الأول هنا هو ضرب الرابطة الأبوية لأننا لم نعد بحاجة إلى الأم التي تنجب أو تربي.

فإن حدث هذا الأمر، ولم يتوقف عند هذا الحد. وتحولت إلى البيولوجيا إلى مجال حرب جديدة ستقضي على النوع البشري. وإذا كانت كورونا هي نوع من حرب الفيروسات كما يروج البعض، فعلى الإنسانية أن تصنع نعشها، وتدق ناقوس الخطر الذي يهدد البشرية في نوعها، لم يعد الإنسان ذلك: "الكائن الأخلاقي" كما روج المناطق، وإنما تحول إلى "كائن أناني"، يبحث عن مصالحه حتى ولو قضى على نوعه، وهدم البشرية لأنه مبرمج بهكذا طريقة.

إن كورونا سلاح ذو وجهين، من ناحية تكاد تقضي على الوجود الإنساني خاصة مع تكرار موجات بروزها وتطورها وفتكها وغياب خباياها عنا (المسبب والسبب والعلاج والتداعيات)، ومن ناحية أخرى بينت زيف الإنسان في تبنيه للقيم.

لقد سعى الإنسان ليجنب نفسه ولا يعبأ بالغير. ولا بمسؤولية الذات اتجاهه، وإنما يسعى أيضا إلى حماية نفسه فقط (حالات إصابة لعدة آباء رفض الأبناء زيارتهم و توديعهم أو حتى دفنهم والعكس صحيح) ورفض الآخر، يتجلى ذلك من خلال لماذا أنا؟ وليس هو؟ لماذا أصاب أنا وليس هو؟ لم يعد الإنسان مسؤول أخلاقيا على الغير ويقدم ذاته لتحمل المرض بدل الآخر، وبالتالي ضاعت وانهارت القيم والإنسانية الزائفة. "إنه أول ما يوجه من أسئلة بصرف النظر عن يكون السائل أو ما تكونه المشكلة. فسواء كان السائل رجلاً أو امرأة، أو كان المرض هو الأنفلونزا أو السرطان، أو التهاب المفاصل أو مرض القلب. فإن السؤال يظل دائما هو نفسه تقريبا. لماذا أنا؟" (زولت هارسنباي؛ ريتشارد هتون: 1988؛ 17). وهنا سأسمح بإضافة "أو كان مرض كورونا الأمر واحد والسؤال سيظل هو: لماذا أصاب أنا ولا يصاب الآخر؟ وبالتالي قد زالت الغيرية مع أول اختبار حقيقي لها. لم يهنا العالم بهذه القيم، بل حتى لم تصمد عند أو مواجهة، وبالتالي على الإنسان أن يعيد تفكيره في قيم جديدة.

كما على الإنسانية أن تعدل أخلاقها، وتتجاوز أنانية الطموح السياسية والاستعمارية، بالعودة إلى الإنسانية لأن الحرب خاصة البيولوجية منها لا تستثنى أحدا، فالفيروس لا يعرف من هو في صفه لجنسية كذا أو كذا، فهو في حالة حرب ضد الإنسانية وليست ضد عرق أو جنس معين.

5. كل زيف زائل فلا شيء يعلو العلم:

واقعا أن فيروس كورونا وكل الكوارث الطبيعية والحروب والصراعات التي تمر بها الإنسانية الآن، لن تكون نهاية العالم، بل يجب أن تكون نهاية الاستهزاء بالعلم والمعرفة في هذا العالم المبني على أسس وقيم أغلبها سقطت وتبين لنا أنها زائفة، ولتبدأ الشعوب في فتح صفحات جديدة تصحح فيها مسار علميا تحول فيه

عن الإنفاق على الأسلحة وتكديسها في المخازن خشية أخطار لربما نفنى ولا تتحقق، أو من أجل إشعال فتيل الحروب والصراعات الخاسر فيها والمنتصر سيان، لطالما أن هناك أرواح تزهق وأخلاق وقيم تسقط وتتهالى. ولتبدأ فيه مسارا تعلو فيه بالإنسانية، من خلال إبرام صفقات تنفق فيها من أجل النهوض بالمعرفة والعلم واستعادة مكانتهما، والعودة إلى تبجيل العلماء والحكماء والأطباء. والاعتماد على خطط إستراتيجية في تنمية البحوث والدراسات العلمية والعملية والعمل الجاد على تطويرها، من خلال الاعتماد على محور الكون والذي هو الإنسان، فبناء الإنسان هو الغاية والهدف أما الوسيلة فهي من خلال الاهتمام بالعلم وإنشاء مراكز التعليم ومخابر البحث، التي من خلالها تعود ملامح الإنسانية المغيبة بروحها المعطاءة ومناعتها القوية، فلا حاجة لنا بسلاح مهما كانت قوته ودرجة تطوره إن عجزت الأكف ووهن الجسد عن حمله بل وحتى عن استخدامه.

عندما قال سقراط كلمته المشهورة "تكلم حتى أراك"، كان يقصد تكلم حتى أرى مقدار علمك الذي تحمل. ثم أنافشك. لم نعد بحاجة إلى مثل هذا الهراء من المناقشات البيزنطية، لا بد لنا من نقاشات علمية صريحة وأسس متينة، لأن من لم يملك العلم لا دليل على قوله ولا على فعله، ولا حل لأزماته حاضرا أو مستقبلا. إن العقل العلمي هو مفتاح التطور وتجاوز الخرافة، هذا ما بينه باشلار بقوله: "عندما يتعلق الأمر بتجارب يوجهها العقل أو ينشئها، يكون النظام حقيقة وتكون الفوضى ضلال" (باشلار؛ 1982: 08). إن الفوضى التي خلفتها كورونا والتي خلفتها الحروب، لن نتجاوزها إلا بالعلم. وليس بسلاح تبادل التهم، من سبب الفيروس ومن تسبب باندلاع الحرب، بل على العالم إيجاد مسرعا للتعايش والتعاون في ظل مبادئ وقيم إنسانية تتساوى فيها جميع الأمم.

وعليه التعايش والعلم أولى من الصراع والحرب اللذان وبلا شك نهايتهما هو الفناء. لم يعد من حيلة للعالم سوى إرجاع مكانة العلم في كل خطوة وفي كل حركة يقوم بها الإنسان، فمع هذا التطور، لم نعد نؤمن بالجهل والصدفة، يجب أن يكون كل شيء محسوب سلفاً، وفق نظريات علمية مبنية على أسس متينة من شأنها تجبب الأسوأ.

كما يجب على الإنسان المعاصر أن يتجاوز الاستهتار بالعلم، وهو أولى العقوبات التي تصيب العلم في عصرنا. "عندما نبحث عن الشروط النفسانية للعلم، سرعان ما نتوصل إلى هذا الاقتناع بأنه ينبغي طرح مسألة المعرفة العلمية بعبارات العقوبات" (باشلار؛ 1982: 13). على الإنسان تجاوز هذه العقبة، إلى التوجه صوب العلم. لم يعد العالم يتوقف عند التكهّن والتخمين، وإنما على العلم الصادق والصارم، فمثلاً تحليل بعض المسؤولين عندنا في الجزائر حول فيروس كورونا كان أشبه بالدجل، فعندما صرح أحدهم وبدون أدنى معرفة علمية أن هذا الفيروس سينتهي مع حلول فصل الصيف، باعتبار أن هذا الفيروس يتلاشى ويزول

بالحرارة، لكن ما حدث مع حلول فصل الصيف كان أشبه بالكارثة، حيث أصبح الفيروس أكثر انتشاراً وفتكا بالإنسان، وارتفعت أعداد الإصابات والوفيات. إذن، علينا أن نتجاوز مثل هذه النظرة السطحية و اللاعلمية، كما أنه وجب علينا التوجه نحو العلم والنظريات العلمية، فالأمة التي لا تعتمد على العلم ستزول حتماً. ودخولها باع التاريخ والحضارة لا يكون إلا بالتصورات العلمية.

هذا يظهر أنه لا شيء دائم إلا العلم، فالتفسيرات الخرافية والدجل، لا يمكن أن ينفذ البشرية مما آلت إليه من كوارث صحية، جراء انتشار فيروس كورونا في دول العالم الثالث خاصة، ومن الخوف من انعكاسات الحروب وتأثيراتها علينا، فدول العالم الثالث (العالم العربي والاسلامي) وجب أن تعيد النظر في مسارها العلمي، وأن تعطي الأولوية للعلم والعلماء. فالأمة التي لا تبجل علماءها لا يبجلها التاريخ، يجب أن نقول وبكل وعي وثقة أنه لم يعد للأسطورة مكان في زماننا، بل إنه لا مكان إلا للعلم.

خاتمة

نصل في الأخير إلى القول أن فيروس كورونا، لم يقف عند كونه فيروس يصيب الجسد فقط، وإنما تعدى ذلك إلى ضرب منظومة القيم الإنسانية. لقد بيّن زيف القيم التي نادى بها الإنسان المعاصر، ولم تصمد أنانية الذات اتجاه هذا الوافد الجديد. لم يعد التحلي بالأخلاق ممكن مع أولوية الذات. لقد انهارت مع هذا الفيروس كل قيم الغربية والمسؤولية اتجاه الآخر. فقد تبين لنا من خلال الكورونا أن الإنسان يعود إلى ذاته دائماً، وهو أناني بطبعه ولا زال. وكل ما تنباه من الفكر الإنساني (وخاصة الحضارة الغربية، التي تعتبر نفسها قمة الحضارة والقيم والأخلاق) من أخلاق قد انهار في أول اختبار حقيقي له. وبالتالي لهذا الفيروس وجهان كحد السيف. من جهة بين أوهام الإنسان المعاصر في تبنيه القيم. ومن جهة أخرى هدم القيم الإنسانية بالعودة إلى أنانية الذات أمام الغير. وبالتالي جعل الإنسان في مأزق التنظير الأخلاقي من جديد.

وكما فعل انتشار الفيروس وتداعياته التي كشفت لنا زيف الشعارات والمؤلفات والقوانين الغربية، فعلت الحرب الروسية الأوكرانية أكثر من ذلك بحيث كشفت وفضحت ازدواجية المبادئ والقيم الغربية. التي هرعت إلى التنديد والتجريم وأبعد من ذلك مدت أيادي المساعدة وأجبت إعلامها واعتبرت الوضع انتهاك مصيري وغير أخلاقي اتجاه حليفها أوكرانيا. فيما عهدناها دائماً صامته لا تحرك ساكناً اتجاه الاعتداءات على أوطاننا العربية وممتلكاتنا ومواردنا، فهل يعقل أن يرفض الغرب وعلى رأسه فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، هذه الأخيرة التي غزت في سنة 2003 العراق بعدة حجج واهية وكاذبة اكتشفها العالم بعد سقوط الدولة وانتشار الفوضى والقتل، أن تكرر روسيا فعلتها مع أوكرانيا وتقوم بشن حرب عليها بعدما اتهمتها بعدة اتهامات وحجج؟.

قائمة المصادر والمراجع.

1. إدغار موران: هل نسير للهاوية؟، تر، عبد الرحيم حزل، أفريقيا الشرق، المغرب، (د ط)، 2012.
2. عبد السلام بنعبد العالي، الفلسفة أداة للحوار، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2001.
3. سعيد محمد الحفار: البيولوجيا ومصير الإنسان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1984.
4. زولت هارسنباي، ريتشارد هتون: التنبؤ الوراثي، تر، مختار الطواهري، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1988.
5. يورغن هابرماس: مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية، تر: جورج كتورة، دار الشرقية، بيروت، ط1، 2006.
6. غاستون باشلار: تكوين العقل العلمي؛ مساهمة في التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية، تر، خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1982.
7. جان فرانسوا دورتيه: معجم العلوم الإنسانية، تر: جورج كتورة، كلمة ومجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2، 2011.
8. أسماء حداد: الحروب الهجينة: الازمة الأوكرانية أنموذجا، مجلة مدارات سياسية، عدد ديسمبر، 2017.
9. جمال فورار العيادي، الحرب الروسية الأوكرانية وتداعياتها من منظور القانون الدولي، مجلة السياسة العالمية، م7، ع2، 2023.